



بهر ، ودون شعور بالخوف ولا الغرابة . ولم التردد والخوف وهي في « بيتها » التي خلقها الله ويسرها لها ؟ لقد ألقها فهي عنها راضية ، وإليها مطمئنة ، وبها ناعمة . مهما اعتسك الميمل ، وضافت أزماته ، وجاشت دواماته ،

واشجرت تياراته ، وأطبقت عليه الأعاسير تناوشه من كل جانب وإن « السمكة » لتبدو هناك في منتهى جبروتها وحرمتها وأبرع حركاتها وأجملها . فن شاء أن يراها في هذه الصورة المتممة فالينظر إليها هناك ، وكذلك من شاء أن يلقى الأستاذ في أكل أعية وأمتع صررة فليلقه في كتبه التي درس فيها الحركات العقلية الإسلامية : ففيها يرى ملكاته الذهنية الأصلية متمسكة في عملها كل قواها ونشاطها واطمئنانها - إنها هنا تعمل في « بيتها » كأنما « تلهمها » التصرف الواجب « بداهة أو غريزة » دون بذل أي مجهود عقلي في البحث والاختيار . إنها « ركبت » لتعمل هذا العمل ، وإنها لتتسكف فيه كل وسعها ، وتجهده كل جهدها ، وإن كانت كل كلفها وجهدها خفية لفرط موافقة هذه الملكات لعملها واتصالها به .

ومن يقرأ فاحصاً متدبراً سلسلة الكتب التي أخرجها الأستاذ ودرس فيها الحركات العقلية الإسلامية مثل كتاب فجر الإسلام وتوابه يجد كل فصل فيها مصداقاً لما نقول .

والكتاب الذي بين أيدينا على نمط هذه المجموعة لا يختلف عنها إلا اختلافاً يسيراً سنوضحه بعد ، وهذه التوابع كلها تسيطر عليها « الروح العلمية » وتستقيم مضامينها على « النهج العلمي » معاً ، وقلنا نجد فيها مواضع « محررة » من سلطان هذا النهج ، وأكثر هذه المواضع القليلة « حلقات مفقودة » في سلسلة البحوث المروضة لا تتضح « فراغات » مواضعها إلا للمختصين ، و « النهج العلمي » يوجب على الباحث ترك « فراغ مناسب » لكل « حلقة مفقودة » حتى يثر عليها هو أو غيره بعد ، وتظل قبل ذلك « مفتوحة » للدارسين .

لا يختلف هذا الكتاب عن « فجر الإسلام » وتوابه إلا في الغاية التي يرجوها المؤلف منه ، فهو لا يقصد فيها يقدم من معلومات عن هؤلاء المصلحين وإصلاحاتهم أن تعلم لحسب بل أن تكون حافظاً لهم الشباب إلى الإصلاح والنهوض بأجمعهم ،

زعماء الأصـلاح في العصر الحديث (*)

تأليف الأستاذ الجليل أحمد أمين بك

بقلم الأستاذ محمد خليفه التونسي



أستاذنا الجليل أحمد أمين من علمائنا النابغين الذين ندين لهم بالفضل الكبير في « ريادة » مجهولات التراث الإسلامي وكشف خفاياه ، والذين عتدوا لأنفسهم بمجهودهم الخاصة الطرق التي سلكوها إليها فاستقاموا عليها ، وُحرفت بهم كما عرفوا بها . فأعلى القمم في البيئة العلمية التي نبت فيها الأستاذ تتمثل في علم الشيخين الجليلين : محمد الحضري بك ، وعبد الوهاب النجار ، ولكن الأستاذ استطاع أن يرتفع بجهداه الشخصي إلى مستوى فوق أعلى هذه القمم . وهو من أظهر « الرواد » الأكفاء الذين أحسنوا دراسة تطورات الحركات العقلية في التاريخ الإسلامي وأخرجوا محصول دراساتهم في كتب كثيرة تمد في بابها من أوفى المراجع اليسيرة التناول ، وأكثرها دقة ونظاماً ووضوحاً ، ومن أجل ذلك لا نرى كتاباً أخرج بعد كتب الأستاذ في موضوعاتها إلا رأينا فيه استشهادات كثيرة بها ، وإحالات كثيرة إليها ، مما يشهد بفضل الأستاذ وكفايته ، وحسن ثقة الباحثين به وآرائه .

ودراسة الحركات العقلية الفردية والاجتماعية خير ما تظهر فيه « ملكاته الذهنية الأصلية » فهو يبدو المتوسم في هذا المجال كالسمكة الجبارة في الميمل الزاخر : سارية في مسبحها في خفة ونشاط عاملة بكل قوتها ، منطلقة بكل حريتها دون تردد ولا

(*) الكتاب ٣٥٨ صفحة من القطع الكبير ، نشرته مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلي بالقاهرة ، وطبعته لجنة الترجمة والتأليف والنشر سنة ١٩٤٨ ، وثمة أرسون قرشاً

في ذهنه وهو عاكف على كتابة هذه الفصول . فن « وراء » المعلومات التي يسوقها إلينا « مملنا » الذي لا يعنيه إلا بسط الحقائق « لتعلم » بل قبل التصدي للتعليم وبمبدأ عنه : أى في مرحلة « اختيار » الموضوعات التي تعلم — من وراء ذلك كله يبدو المؤلف موجهاً عقله إلى عقول « تلاميذه ومريديه » وقد انبعثت من قلبه حرارة منظورة مجتازة مقولهم إلى قلوبهم حناناً وخفية « اتوسى » إليها إجماعاً بالخط والتيرة على المصلحين وإصلاحاتهم والنفور والتمرد على أعدائهم وأعدائهم ، من غير أن يدرك « التلاميذ والمريدون » أنهم في حضرة « مرب » أو واعظ فالؤلف « يرى » من غير إخلال بالأصول التي يجب على « العالم » التزامها ، ولا يسلك سبل الوعاظ المفضوحة المقيمة ولا يتكلف حماسهم الزائفة ، فن « بعبه » هذا الكتاب فيها ونعمت ، ومن « يريه » فهو أفضل .

وأما الفهرس فتثالثا صفحة في عناوين فصول الكتاب لا في أعلامه ، ولا في عناصر موضوعاته ونحو ذلك ، ولا حاجة إليها لما سبق .

وأما المقدمة فهي لازمة أشد لزوم لفهم الفصول التي يليها إجمالاً ، وهي تمهيد لها ، إذا لمع المؤلف فيها إلى نهضة العالم الإسلامي بمد الإسلام ثم سوطه وجوده ، وما أصابه من عن حطوته وتركته فيه كثيراً من الآثار السيئة ، ثم ما كان من نهضة الغرب واقتحامه الشرق اقتحاماً جملة يفوق من فقلته ، ويحس بعيوه وبخاصة إلى إصلاحها ، والمؤلف يبين بذلك أن البيئات التي ظهر فيها هؤلاء الزعماء كانت تحس بمحاجتها إليهم وبين أن « أمكنهم » كانت « فارغة » تنتظرهم ، وأنهم لما رأوها لم ، لم يقهوا فيها إقحاماً . ومن ثم برام القراء حيث هم دون أن يحس لظهورهم بقرابة ولا حيرة .

وأما الفصول المنشرة ، فقد اختص كل فصل منها بزعم ، والزعماء العشرة هم كما رتبوا في الكتاب محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب ، ومدحت باشا في تركيا ، والسيد جمال الدين في الأفغان ومصر وغيرها ، والسيد أحمد خان ، والسيد أمير علي في الهند ، وخير الدين باشا التونسي في تونس ، وعلي باشا مبارك ، وعبدالله نديم في مصر ، والسيد عبد الرحمن الكواكبي في الشام

ومن أجل ذلك لا عبرة بأن فصول الكتاب متناثرة ، ولا بأن بعضها نشرت من قبل على « سورة » مقالات في بعض المجلات ولا عبرة حتى بعنوان الكتاب « زعماء الإصلاح » . فانت إذا كتبت « حركات الإصلاح » لم يكن عنوانك أقل صدقا في دلالاته على مضامين الكتاب من العنوان الذي اختاره مؤلفه له فهو « كتاب عني فيه أستاذنا الجليل بدراسة الحركات الإصلاحية التي تمثل أبرز صورها في طائفة معظمهم من زعماء الإصلاح الديني وأقلمهم من زعماء الإصلاح السياسي في الشرق الإسلامي في الجيل الماضي » وأولا أن هذا التعريف — على قصره — لا يصلح أن يكون عنواناً لطوله لكان أليق عنوان لهذا الكتاب لأنه أصدق تعريف به كما سننصه . وليسأل نفسه وحدها من يفهم العنوان على ظاهره .

يتضمن الكتاب تعريفاً فمقدمة فمشرة ففصول اختص كل منها بزعم وحوى له صورة شمسية ، فخاتمة .

فأما التعريف ، فبالكتاب وتطور نشره والغاية منه : فموضوعه « سبعة عشر من المصلحين الحديثين في الأقطار الإسلامية المختلفة » فأما أنهم عشرة كما وصفوا فنعم ، وأما أن الكتاب في سيرتهم أو سيرهم فمعرفة فيه « تواضع » من ناحية ومبالغة من أخرى ، كما سبقين بعد . ويفهم من كلام التعريف أن كثيراً منه نشر في بعض المجلات ، ثم أتم وجمع « ليسهل تناوله » ويكثر تداوله « وقد أحسن أستاذنا فيما صنع : إذ أراضى بصنيعه الكريم رغبة إليه ملححة كانت تمتلج في نفوس من قرءوا الأجزاء التي نشرت منه ، ومما يزيد في قيمة صنيعه أن في الزعماء الذين تحدث بهم في كتابه من ليس للقراء علم حتى باسمه ، ومنهم من للقراء به علم قليل مضطرب لا يسد حاجة ولا « يثير » فكراً أو قلباً . والغاية للرنجاة من الكتاب « أن يكون — فيما يصور من حياة المصلحين ونوع إصلاحهم — باعثاً للشباب ، يستثير همهم ، فيحذون حذوهم ، ويهتدون بهديهم وينهضون بأهمهم » وإنها لغاية حقيقة بالتقدير والسعي إليها ، ولا يجب في أن يصمد إليها « مرب » كأستاذنا الجليل .

وليست هذه الغاية ظاهرة في فصول الكتاب ، فالؤلف اعقل وأكرم من أن يظهرها في فصوله ، وإن كانت حاضرة

أكثرهم بأقل ما يكفل فهم العلة بين شخصية المصلح وإصلاحه مع أقامهم بما لا يفيد شيئاً في فهم هذه العلة التي لا بد من فهمها وهو بهم في دراسة الزعماء أحياناً ببيان بينهم وأثرها فيهم ، وبيان ما ورثوا من أصولهم ، ويتمسك بتطبيق ذلك عليهم وعلى أعمالهم وإصلاحهم ، واسكنه يأتي مثلاً في فصل الشيخ محمد عبده فيمتدح بأن نبوغ النابغ يعتمد على عنصرين : استمداده الفطري وبيئته التي عاش فيها ، ويلتوى على أستاذنا تطبيق ذلك على الشيخ الإمام ، فينفض يديه عنه جملة ، ويقول « إنه هكذا خلق » (ص ١٨٥) ولا عجب في ذلك عندنا لأن مجال أستاذنا الجليل الذي تظهر فيه ملكاته الذهنية الأصيلة - كما قدمنا - دراسة الحركات العقلية ، ولا نقول فيه إلا ما قال في الشيخ الإمام « إنه هكذا خلق » وذلك حسبنا وحسبه أيضاً كي يكون من أعلامنا الذين نفخر بهم ونطاول بهم أمثالهم في شتى الأمم عن ثقة وجدارة ليس في الكتاب دراسة جارية ولا تافهة لدبالبيرا ولا مزاريك ولا طيلاق ولا غاندى ولا تشايح كاشي شريك ولا مصطفى كمال ولا سعد زغلول ولا قاسم أمين ولا أحد من كثير أمثالهم ، وإن كانوا جميعاً من « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » بل من أبرز زعمائه ، وفهم ما لا يقل في عظمتهم وأثره فينا وقربه منا ، وصلته بنا عن كثير من الزعماء الذين اختارهم المؤلف الكبير . وقد خلا الكتاب - مع أنه تاريخي - خلواً تاماً من ذكر المراجع : فلا إشارة إليها مفصلة ، ولا مجملة في حواشي الصفحات ، ولا تمديد لها في أول الكتاب ولا في آخره ، ولا في أوائل الفصول ولا أواخرها ، ولعل غاية المؤلف من كتابه هي شفيمة في هذا السكوت ، فهو كتاب موجه إلى الشباب كي يثير سمعهم ، ولا حاجة مع هذه الغاية إلى ذكر المصادر ، لأن « الثقة » بما يقول « الربى » أمر مسلم به لدى « التلاميذ والربدين » ولعل اسكوتة سيباً آخر شافماً له : فقد نشرت فصوله من الكتاب في صورة مقالات في إحدى المجلات للقارىء المجلان ، ثم جمعت المقالات المنشورة وأضيف إليها مثلها فاستوت كتاباً ، ولا ضرورة مع القارىء المجلان إلى ذكر المراجع أيضاً ، إذ كل ما يمينه أن « يعلم » وقد « يثار » بذلك وحده ، ولا حاجة إلى المصادر لاني « التليم » ولا في « الإثارة » ولا بيمينه مرجع

والشيخ محمد عبده في مصر . وقد اختلفت حظوظ الفصول من صفحات الكتاب : ففصل « السيد أمير علي » وهو أقصرها - فال سبع صفحات ، وفصل « الشيخ محمد عبده » وهو أطولها - نال إحدى وستين صفحة ، وبقية الفصول بين هذين حظاً ، وفي كل فصل درست « البيئة التي نشأ فيها الزعيم المصلح وحاجتها إليه ، وصفاته التي أهلتها للزعامة فيها ، وما واجهه في جهاده من عقبات ، وتغاقب عليه من أزمات ، وما صادفه من نجاح وخيبة وأسباب نجاحه وخيئته . كل ذلك قد ساقه المؤلف بأسلوب سديد ، وتعبير واضح ، مع أدب جم في النقد ، وتقدير قصد في النقد .

وكما اختلفت الفصول حظاً من الطول والقصر اختلف حظها من الإتقان والتأسك ، ومن التأثر الجنى بالغاية التي قصدها المؤلف بكتابه .

وأما الخاتمة ، فقد استعرض المؤلف فيها إجمالاً وصف النقلة التي انتقلها الشرق الإسلامي على أيدي مصلحيه ، والفروق بين حاله قبلهم وبعدهم ، وما وقع من الغرب عليه من أفكار ونظم في استبداده به ، والأزمات الروحية والمادية التي يمانها الآن ، والتيارات والمذاهب الفكرية والاجتماعية التي تتصدف فيه ، والأخطار التي تهدده ، والأطماع التي تشتمجر حوله ، والمشكلات التي تواجهه في انتظار الحل على أيدي « مصلحين جدد » والشروط التي يجب توفرها في المصلح ، والشروط التي يجب أن تهيأ له لنجاحه في إصلاحه .

هذه كل مضامين الكتاب بإجمال دقيق ، ومن استعراضها يتبين سبب إهمالنا عن فهم العنوان على ظاهره ، فلم يدرس الكتاب بالإجمال ولا التفصيل « كل زعماء الإصلاح في العصر الحديث » ولا في الجيل الماضي وحده فضلاً عن الجيل الحاضر ، ولا كل زعماء الشرق الإسلامي فضلاً عن الشرق عامة والعالم بوجه أهم ، ولا حتى « كل » الزعماء الدينيين في الجيل الماضي في الشرق الإسلامي ، بل اكتفى بدراسة حركات الإصلاح على التحديد المتقدم كما يمثلها « أبرز » زعمائها ، وهو مع ذلك لم يوجه عناية ممتازة بتصوير « شخصيات » هؤلاء الزعماء البارزين القلائل ، ودراستهم دراسة بيوجرافية بل أقتنع من ذلك مع

وقد وردت تعبيرات أخرى لا أدرى رأى القراء فيها ،
فأستاذنا يستعمل « السلم » مذكرة (ص ٣٥٥) وما أعرفه
— وليس بين معجم — أن السلم مؤنثة كما وردت في القرآن
« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » فهل يجوز تكبيرها ؟ ويقول
« سورة للسيد جمال الدين أهداها الشيخ محمد عبده .. » (انظر
الصورة أمام ص ١٠٠) والذي أعرفه أن أهدى بتمدى لثاني
مفعوليه بالي أو باللام . ويقول « فن أراد الحق كاملا وإلا لا »
(ص ١١٠) وأعرف القول « وإلا فلا » (انظر أيضا ص
٤٤ ، ٢١١) .

وفي الكتاب مواضع موازنة بين شيئين أو أكثر لبيان
وجوه الوفاق أو الخلاف ، غير أن ما قيل في الموازنة لا « يوضح »
هذه الوجوه توضيحا حاسما ولا شبه حاسم (انظر الموازنة بين
محمد عبد الوهاب ومدحت باشا وجمال الدين ص ٥٧ ، والموازنة
بين ابن خلدون والكوكبي ص ٢٦٣) .

أما بعد فنحن نتوجه إلى أستاذنا الكبير بالتقدير والتحية ،
شاكره على ما أسدى إلينا نحن الشباب من فضل بهذا الكتاب
القيم الممتاز من وجوه عدة ، راجين الناشئة أن يقرءوه كي
تتحقق الغاية التي أرتجأها أستاذنا لهم منه . وإنهم لأهل أن
يستزيدوه من أمثاله ، و« كل يعمل على شاكلته » و« كل
ميسر لما خلق له » و« الله يقول الحق وهو يهدي السبيل » .

(القاهرة) محمد هلبنة التونسي

علمه وثورته للبحث بنفسه بعد ذلك استزادة من العلم والثورة .
غير أن ذلك كله لا يمنعنا من ملاحظة نصوص حصرها أستاذنا
بين أقواس ، ولا شك أنها من كلام غيره ، ولا ذكر معها
لأصحابها في المتن ولا الحاشية (مثلا ص ٣٩) كما أن هناك
نصوصا حصر أولها وأطلق آخرها وذلك بحير القاري . فلا
يستطيع أن يميز كلام المؤلف من كلام غيره (ص ٣٩) .

وقد تغفر « الثقة » و « المجلة » السكوت عن المصادر كما
أسلفنا ، ولكني لا أدرى أتفتران المؤلف أيضا أن ينطلق في
إيراد خواطر على لسان مصليح دون أدنى إشارة إلى اقتباس نص
له ولا استشهاد بواقعة تاريخية عليه تؤكد لأهل « الثقة » وأهل
« المجلة » مما أن المصلح كان يفكر على النحو الذي قيل على
لسانه للفرقة بين أسلوب القصاص وأسلوب الباحثين (انظر
ص ٤١ — ٤٢ ، ص ٤٥ — ٤٦) .

إن لكل كفاية مزيتها وخطرها ، وقد تحدثت قبل بكفاءة
أستاذنا في دراسة الحركات العقلية ، وجوده سبب ملكاته الذهنية
الأصلية في عيلها الأخر مهما اعتصمت مناربه ، ولعل هذه
الرغبة في السبج هي التي أدت بها — في دراسة الحركة
الوهابية — إلى تناول الحالة الدينية في الشرق الإسلامي عامة ،
وإلا فهل يمكن أن نعلم مهما بلغت « نمتنا » وبلغت « مجلتنا » —
بأن محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب كان يعرف « في مصر
شجرة الحنفي ، وتمل الكُنتسني ، وبوابة التولي » (ص ٩)
أو هل تأثر بهذه « المقدسات » وإلا فما الداعي إلى الحديث بها
في دواقه إلى الإصلاح ، والحديث بنيرها في غير موضعه (مثلا
ص ١٢٩ — ١٣٠) .

وأستاذنا الجليل — غفر الله له انتصاره للعامة — كتب
بالربية منذ عشرات السنين ، فهو كاتب « منقوع » فيها ،
ومن أجل ذلك وجب علينا أن نعرف له حق « المجتهد » في
« سك » تراكيب جديدة فيها ، ولو لم ترد « المعاجم » بها ،
مادام لها مبرر « ذوق » يحسه الأديب . مثال ذلك قوله « ما زجا
التصوف بالفلسفة بالهيئة بنير ذلك » (ص ٦٣ ومثله في ص
٣٠٩) وقوله « فيورون » (ص ٣٥٥) والمروف أن جمع
فيور غير . وأنا أهل نعمة هذا وبما إليه مم أستاذي الكبير .

محمد هلبنة
تونس

يقدم

مؤرخنا
مؤرخنا

صورتنا القومية فكأنهم من جيراننا الاجتماعية